فضيلة الحلم

جانب الوجدان فى الإنسان ليس هو العاطفة وحدها، ولكنه التفاعل مع النفس والإنسان الآخر فى مجتمعه ومجال الحياة الذى يعيش فيه.

إنه فى الحقيقة إدراك الجمال والتعاطف معه، وإدراك الحسن، والعمل على أن يكون محسناً. وإذا قيل الجمال فهو جمال السلوك، وجمال القول، وجمال الصنع وجمال العلاقات مع الغير، وجمال الطبيعة.

واستهداف التربية القويمة، والخلق الرضى، والسلوك السوى، والأدب الجم، ورياضة النفس وتحليقها فى أفق الكمال، وارتقائها فى مدارجه، غاية مثلى، طالما فكر فيها وبحث عنها، وعمل لها، وسعى نحوها، الحكماءُ والعلماءُ والباحثون، والمعنيون بالعلوم الإنسانية وشئون النفس.

وإذا نصح الإسلام الإنسان فى معاملته للغير، وفى معاشرته للأُسرة أن يرعى حدود الروابط الإنسانية، وأن يتبادل مع هذا الغير الشعور الإنسانى الكريم. إذا ما نصح الإسلام بذلك فإنما يعنى أن يكون هناك تجاوب إنسانى تستريح إليه النفوس، وترضى عنه.

ومن أجل ذلك تهش فى الداخل قبل أن تنبسط أسارير الوجه فى الخارج عند اللقاء أو عند الحديث، أو عند المشاركة فى عمل ما، فليس تجاوب النفوس أو رضاها، وسرورها عند اللقاء أو عند الحديث، أو عند المشاركة فى عمل ما، إلاَّ ظاهرة تعبر عن الإدراك النفسى الخفى لجمال الألفة وعاطفة الإنسانية.

لهذا كان الحلم فضيلة سامية، وخلقا رفيعا، وخلة لازمة، لصفوة الله من خلقه وخيرته من عباده من أنبياء الله ورسله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

والإسلام دعوة إلى الرقى فى كل شىء، وليس أبعد عن حقيقة الإسلام من الانحطاط عموماً لأن الانحطاط يتجافى مع طبيعة الإسلام ويتنافى مع مقام الخلافة الذى بوأه الله للإنسان وسبيل السمو والارتقاء الخلقى والتماسك النفسى، وبه يواصل الإنسان رحلة الارتقاء فى أمن وسعادة وسلام، ولما كان (الحلم) هو حجر الزاوية فى بناء الهيكل الخلقى السليم فقد رضيه الإسلام خلقاً لأبنائه، ودعاهم إليه ورغبهم فيه، وجعله ركنا أساسيا فى أركان بنائه.

قال تعالى:

﴿ **وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[1].

إن الإسلام بما ينصح به الإنسان ـ كى ينمى وجدانه ـ يريد أن يعيش الإنسان فى جو هو جو الاطمئنان والاستمتاع بالحياة الإنسانية استمتاعاً يرفعها فوق مستوى الاحتكاك والخصومة والنفرة وتبادل الإيذاء.

إن المؤمن فى نظر الإسلام هو المحسن، والمحسن هو صاحب الوجدان الرفيع. وهو صاحب الإنسانية فى سلوكه مع نفسه ومع غيره، وصاحب التقدير للطبيعة وما عليها.

والحلم بالكسر الأناة والعقل وجمعه أحلام. وقيل: الحلم هو ضبط النفس والطبع عند هيجان الغضب.

وقوله تعالى: ﴿ **أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا** ﴾[2]. معناه: عقولهم، وليس الحلم فى الحقيقة العقل لكن فسره العلماءُ بذلك لكونه من مسببات العقل.

وقال عليه الصلاة والسلام فى صلاة الجماعة: «ليلينى منكم أُولو الأحلام

(١) آل عمران: ١٣٣ ، ١٣٤.
(٢) الطور: ٣٢.

والنهى[١]». أى ذوو الألباب والعقول، واحدها «حلم» وكأنه من الحلم والأناة والتثبت فى الأُمور وذلك من شعار العقلاءِ .

ويقول صالح بن جناح اللخمى:

فإن كنت محتاجاً إلى الحلم إننى ... إلى الجهل فى بعض الأحايين أحوج
ولى فرس للحلم بالحلم ملجم ... ولى فرس للجهل بالجهل مسرج
فمن شاءَ تقويمى فإنى مقوم ... ومن شاءِ تعويجى فإنى معوج

والحلم خلق العلية من الناس والأفاضل من البشر. ولذا دعا إليه الإسلام، ورغب فيه، وحض عليه، ووعد عليه بالجزاءِ، والخير الأبقى، والعفو العظيم، فى جنة عرضها السموات والأرض أعدها الله تعالى لمن يضبطون أنفسهم، ويملكون زمامهم، ويمسكون عواطفهم ويقتصدون فى انفعالاتهم، ويتحكمون فى نزوعهم، ولديهم القدرة على تصريف شحنات الغضب، وكبت بواعثه، وكبح جماحه، وكفكفة شره، والحد من غلوائه، وإطفاءِ جمرته وتبديد دخانه، وتبديل دوافعه، من الانتقام إلى الحلم، وتعديلها من المؤاخذة إلى الكظم والعفو.

ولذا لم يعرف الحلم إلاَّ فى أهل الحزم والكياسة، وذوى النفوس الكبيرة والطاقات الهائلة، والآفاق الرحبة، التى سرعان ما تتمزق فى سمائها سحب الغضب وينقشع لتوه ضباب الانتقام وكدر اللجاجة، فإذا هم بحلمهم يطاولون النجم رفعة وسمواً، ويضاهئون البحر صفاءً وطهراً.

وهناك أسباب باعثة على الحلم، جد الباحثون فى استنباطها واستخراجها لتكون منارة تضىءُ أمام السالكين، وومضات مشرقة فى الطريق.

والأول من هذه الأسباب : الرحمة للجهال وإعذارهم، وقد قيل فى منثور الحكم: من أوكد أسباب الحلم رحمة الجهال»، وقال أبو الدرداء رضى الله عنه

(١) الحديث موجود فى لسان العرب لابن منظور ج ١٢ ص ١٤٦.

لرجل أسمعه شتائم: يا هذا لا تغرق فى سبنا، واجعل للصلح موضعاً، فإنا لا نكافىءُ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله عز وجل فيه.

والثانى : القدرة على الانتصار، وذلك من سعة الصدر وحسن الثقة، وقد روى عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال :«إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو شكراً للقدرة عليه».

والثالث: الترفع عن السباب، وذلك من شرف النفس وعلو الهمة كما قال الحكماءُ: «شرف النفس أن تحمل المكاره كما تحمل المكارم».

والرابع: الترفع عن المسىء. ومما يذكر أن رجلاً شتم ابن هبيرة فأعرض ابن هبيرة عنه، فقال له الرجل: إياك أعنى. فقال ابن هبيرة: وعنك أُعرض. وأكثر رجل من سب الأحنف وهو لا يجيبه. فقال الرجل : ما منعه من جوابى إلا هوانى عليه واستحى. وقال أحد الزعماء حين حرُض على جواب من سبه:

أو كلما طن الذباب طردته إن الذباب إذن على كريم

والخامس: الاستحياءُ من جزاء الجواب. وهذا يكون من صيانة النفس وكمال المروءَة. ويقال فى الحكمة : «احتمال السفيه خير من التحلى بصورته، والإغضاءُ عن الجاهل خير من مشاكلته.

والسادس: الكرم وحسن التألف. وقد قيل للإسكندر المقدونى: إن فلاناً وفلاناً ينقصانك ويصيبانك فلو عاقبتهما . فقال: هما بعد العقوبة أعذر فى تنقصى وثلبى، فكان هذا تفضلا منه وتألفاً. وحكى أن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال لعامر بن مرة الزهرى: من أحمق الناس؟ قال: من ظن أنه أعقل الناس. قال : صدقت. فمن أعقل الناس ؟ قال : من لم يتجاوز الصمت فى عقوبة الجاهل.

والسابع: المكر وتوقع الفرص فى المستقبل، وهذا يكون من الدهاء، فغضب الجاهل فى قوله، وغضب العاقل فى فعله.

وبجانب هذه الأسباب توجد أسباب دينية لأن الحلم حقيقة من خلال الإيمان وصفات المؤمنين، وما كان الإيمان فى حياة الناس إلا ليضبط الفطرة فيهم، ويعلى من شأنها، فلا تتدلى إلى الحيوانية ولا تهبط إلى الدون.

وشأن المؤمن دائماً أن يكون حريصًا على معالى الأمور، ومترفعاً عن سفاسفها، متعلقاً بأهداب الكمال، ساعياً إلى إحرازها والاتصاف بها.

وخلق الحلم فى نفس المؤمن انعكاس طبيعى لإيمانه، ودليل حيوى على مدى انتفاعه بهذا الإيمان، وترجمته إلى الخلق، وتجسيده فى أسلوب وسلوك يتعامل به مع الناس ويكون هو المنهج الذى يحتكم إليه فى تصرفاته معهم، فإذا جهلوا عليه كان إيمانه مركز الإمداد والتوجيه والإشعاع الذى يملى عليه أسلوبا محدداً، وسلوكاً خاصاً، يفرض عليه ضبط النفس، ويلزمه بهدوء الأعصاب، ريثما تمر العاصفة ثم لا يكون الحلم بعد إلا رد الفعل الطبيعى لهذا الإيمان.

والأسباب الدينية الباعثة على الحلم نجدها على النقاط التالية:

١ ـ أن يذكر الله تعالى عند الغضب فيدعوه ذلك إلى الخوف منه ويبعثه على الطاعة له، فيرجع إلى أدبه، فعند ذلك يزول الغضب قال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤]. قال عكرمة: إذا غضبت.

٢ ـ ومنها أن يذكر ما يؤول إليه الغضب من الندم ومذمة الانتقام قال الحكماءُ: الغضب على من لا تملك عجز، وعلى من تملك لؤم.

٣ ـ ومنها أن يذكر ثواب الحلم فيقهر نفسه على الغضب رغبةً فى الجزاء والثواب وحذراً من استحقاق الذم والعقاب. جاءَ فى الأثر:

«الخير فى ثلاث خصال فمن كن فيه فقد استكمل الإيمان: من إذا رضى لم يدخله رضاه فى باطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من حق، وإذا قدر عفا».

٤ ـ ومنها أن يذكر انعطاف القلوب عليه، ومحبة الناس له بالحلم والصفح فيكف عن متابعة الغضب رغبة فى التأليف وجميل الثناء.

ولم يُرَّغب الإسلام فى الحلم ويدعو المسلمين للاعتصام بحبله، والعيش فى وارف ظله لمجرد أنه زينة نفس أو كمال خلق، ولكن لأنه إرادة إيجابية لمكافحة الشر، وتفادى الأزمات. وإن أدوأ الداء، وأنكى الأمراض تسرع يحفز إلى الانتقام، ويحجب منافذ الفكر، ويقتل الحكمة، وعند ذلك تكون القوة الجسمية أو السلطان سلاحاً بتاراً فى يد مجنون تزهق به النفوس، وتتطاير به الرؤوس دون ما وعى أو إدراك.

والحلم هو العلاج بل صمام الأمان الذى يحول القوة الجسمية والأدبية إلى سلاح مغمد فى جرابه لايستخدم إلا بتراً للشر، وتقليماً لأظافر الطغيان. وكثيراً ما حفل تاريخ الأمة الإسلامية بنماذج اتصفت بالحلم فنضرت وجه الإنسانية، وغدوا فى حياتها معالم وضيئة، ومُثُلا رائدة، بل كثيراً ما زادوا على الحلم وارتقوا فوقه، وتخطوا مقامه إلى مقام الإحسان، فكانوا لايتوقفون عند مجرد الحلم على من جهلوا عليهم وإنما كانوا يحسنون إليهم، ويمدون إليهم يد العون والمساعدة رغبة فى استلال سخيمتهم. وهذا بطبيعة الحال أوج لايعيش فيه، ولا يرقى إليه إلا من رباه الإيمان وهذبه الوحى. قال تعالى فى سورة فصلت: ﴿**وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾**﴾.

وإن للحلم فى الحياة الإنسانية أثره البارز وعواقبه الحميدة، حيث يصل من حبل الألفة ما يكاد ينقطع، ويجمع من شمل الأمة ما يكاد يتوزع، به يحل الأمن محل الخوف، ويقر الوئام والوفاق مكان الخلاف والشقاق، به يرتفع الكبير، ويكبر الصغير وتختصر المسافة، سيما فى مجال الإصلاح، والتقويم والتربية. والحلم عامل هام وأصيل فى سلام الإنسانية وأمنها الاجتماعى، ورقيها الأخلاقى، ووحدتها التى يجب دعمها وإثراؤها، وعدم تعريضها للانفعالات النزقة، والانتفاضات الطائشة.

والأمة المنضبطة هى أعز الأمم فى نفسها وعلى الناس، والأمة الجهولة الحمقى هى أخرق الأمم وأهونها على نفسها وعلى الناس.

* * *